مجلة منيرفا..... Αθηνά
مجلد(06) العدد(01) ISSN : 2437-0703 EISSN :2600-6448
https://www.asjp.cerist.dz/secretaire/prePublication/201

القراءة الإبستمولوجية لمفهوم العلاقة بين السوي والمرضي في فكر جورج كانغيلام

The epistemological reading of the concept of the relationship between the Sufi and the sick in the thought of George Cangelam

الاسم واللقب: كرمين فتيحة
مختبر: الفينومينولوجيا وتطبيقاتها
كلية: العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة: أبوبكر بلقايد- تلمسان البلد: الجزائر
البريد الالكتروني: kerminefatiha14@gmail.com

Name & Surname: kermine fatiha
Laboratory: phenomenology and its applications
Faculty: Humanities and Social Sciences
University : Abou Bekr Belkaid Tlemcen Contery:Algeria
Email:kerminefatiha14@gmail.com

قُدم للنشر في:11-06-2021 قُبِل للنشر في: 17-03-2022.
تاريخ النشر: 01-05-2022.

الملخص:

يبين جورج كانغيلام (1904-1995) أن الظاهرة الحيوية، تتضمن جوانب مختلفة منها حالة السوي وحالة المرضي أيضا، حيث يصبح الإنسان غير سوي في صحته، عندما يخالف طبيعة المعيار المؤشر على الصحة المتوازنة والسليمة، وهذا ما يشبهه بالحكم على القيم، فعندما يتم انحراف الإنسان عن المقياس الصحيح للأخلاق، فإنه يحكم عليه بارتكاب جنحة أخلاقية أو ذنب، يجعله محروما داخل المجتمع الذي يحيا فيه، ويعطي كانغيلام تصورا مختلفا للمعيار، الذي يحمل معاني مختلفة في اعتقاده، الذي يكون في البداية ذو طبيعة بيولوجية، ثم يحمل معنى واقعي اجتماعي، ليكتسي المعيار بعد ذلك بعدا أنطولوجيا، يرتبط بالخبرة المعاشة التي يعيشها الإنسان في العالم الخارجي، وبحكم تعدّدها تزيد نسبة المعايير.

الكلمات المفتاحية: العلم؛ الطب؛ السوي؛ المرضي؛ الصحة؛ المعيار؛ البيولوجيا، الابستمولوجيا.

Abstract :

George Kangilam (1904-1995) shows that the biological phenomenon includes various aspects, including the state of normal and the state of the sick as well, where a person becomes abnormal in his health, when he violates the nature of the criterion that indicates balanced and sound health, and this is what he likens to judging values, when a deviation is made Man from the correct standard of morality, he is judged to commit a moral misdemeanor or sin, which makes him deprived within the society in which he lives, and gives Kangilam a different conception of the standard, which carries different meanings in his belief, which is initially of a biological nature, and then carries a realistic social meaning, After that, the criterion acquires an ontological dimension, related to the lived experience that a person lives in the external world, and due to its plurality, the proportion of criteria increases.

Keywords: Science, Medicine, Normal, the disease, the health, Standard, biology, Epistemology.

1.مقدمة:

حاول الفيلسوف جورج كانغيلام أن يمارس قراءة إبستمولوجية في مجال الطب والبيولوجيا، وذلك بهدف تفسير خضوع المعرفة الحيوية إلى سياسات استغلالية دغمائية، فرضت نظام الثبات والاستمرارية على تاريخ العلم، هذا ما شكّل أزمة أثّرت بشكل كبير على حقيقة المجال الطبي، خاصة فيما يتعلق بقانون الانفصال الكلي الذي شمل العلاقة بين السوي والمرضي، لهذا اهتم كانغيلام بتحليل أهم الأسباب التي ساهمت في ترسخ مبدأ الثبات في الحقيقة العلمية، ويتمثل أهمها في الاعتقاد، بأن الحقيقة العلمية التي تمّ التوصّل إليها في الماضي سوف تشمل الحاضر، وتبقى أحكاما ثابتة نهائية، هذا ما دفع به إلى إحداث منعطف فعال في دراسته الإبستمولوجية التي أسست فلسفة الحياة على المبدأ الحيوي العقلاني القائم على مبدأ القطيعة، وتجاوزت المبدأ الميكانيكي، وركزت على فهم الأسلوب الذي يتشكل به الصواب والخطأ في العلم، مشيرا إلى مبدأ القطيعة والانفتاح الذي ينبغي أن يتسم به العلم ، متجاوزا الحقيقة الثابتة والمنغلقة، لأن معيار القطيعة يمثل تصحيحا للحقائق العلمية، وهذا ما يساهم في فتح آفاق العلم في مجالي الطب والبيولوجيا على علوم الحياة، واعتبار العالم الخارجي مصدرا أساسيا لاكتساب المعرفة، فالواقع يمثل نتيجة للفعل الإنساني، وتغييره مرهون بتغير معتقدات الإنسان، لأنه منح الإنسان حق اختيار القيم التي تساعده على التكيف، هذا ما أوضحه كانغيلام في دراسته، لقضايا تتعلق بطبيعة الإنسان السوي والمريض، وتكيّفه مع الواقع، محلّلا تاريخ التطور الذي شهده مفهوم السوي والمرضي، وارتباطهما بالمجال الطبي والبيولوجي. وفي هذا السياق توصل كانغيلام في دراسته التحليلية النقدية لظاهرة السوي والمرضي إلى فكرة، أن الإنسان كائن معياري بطبعه، قادر على صناعة معايير تتوافق مع الوسط المعاش، وهذا يشير إلى وجود علاقة طردية طبيعية بين الصحة والمرض، فالصحة تتمثل في قدرة الإنسان على تجاوز الأزمات العضوية التي يسبّبها المرض، ليتمكن من استرجاع بنيته العضوية السوية، وعلى هذا الأساس تتمثل إشكاليتنا الأساسية في هذه الورقة البحثية، في معرفة مدى توصل كانغيلام إلى التصريح بأن المرض هو الطريقة، التي يصبح فيها الجسم فعلا موضوع للمعرفة؟

وكيف يتمكن الإنسان من خلق معايير لتقبل ظاهرة المرض وربطها بالحياة؟

2.القراءة الإبستمولوجية لمفهوم السوي:

إن المعنى الذي يحمله مفهوم السوي من الجانب اللغوي هو المثلث القائم، الذي يرمز إلى الطبيعة السليمة، أما في معناه العام ارتبط مفهوم السوي بمعنى النموذج المثالي، الذي تعتمد عليه مبادئ القيمة، فهو نظام يعمل باستمرار من غير اختلال أو عرقلة، ويهدف جورج كانغيلام إلى تحليل طبيعة الصحة ومعناها، انطلاقا من التعريف الذي وضعته المنظمة العالمية للصحة، موضّحا التصريح الذي أفاد به الخبراء الدوليين بخصوص أن معيار الصحة لايخلو من المرض وأعراضه بشكل كامل، بل يكون قابلا لتجاوز المرض ، وهذا معناه أن الصحة الحقيقية تتضمن قوة المواجهة والتصدي للمرض، الذي يلازمها، مما يجعل بلوغ مرحلة الشفاء تخضع لمنطق معايشة المرض بمعيار ذاتي

يتعارض مع الموضوعية،[1] ورغم الصعوبة التي تعرّضت لها وظائفه الحيوية والعضوية نتيجة الأمراض إلا أن الردود المضادة والحيوية، التي يدافع بها الجسد ضد الأسقام، تجعله يبلغ مرحلة الشفاء، وهذا يعود إلى قوة الجهاز المناعي الذي استطاع المقاومة من خلال احتواء فيروسات المرض، والتغلب عليها، وبالتالي فإن إنتاج المضاد الحيوي في الجسد، تطلب إنجاز تجارب على الحيوان من خلال وضعه تحت تأثير مرض، حتى يتمكن جسده من المقاومة بواسطة ما يفرزه من مضادات حيوية، تتغلب على المرض والتي يتم منحها على شكل أمصال للإنسان للشفاء من المرض.

وقد تطرق كانغيلام أيضا إلى تفسير محاولة العالم رينيه لوريش الذي أحدث منعطفا في القرن العشرين من خلال قراءته الجديدة للنموذج الكمي، مبينا أن معيار الصحة يقترن بحالة الاستقرار التي تكون عليها أعضاء الجسد، لأن الصحة أصبحت ترمز إلى ما نفهمه مضمونا، كطريقة لفهم مقومات الجسم، تتوقف على الإلمام بظاهرة المرض، التي هي في الأصل مرتبطة بمجال الطب، وليس بمجال الفيزيولوجيا،[2] بالإضافة إلى ذلك تكون حالة السوي وفق الممارسة الطبية والجانب الفيزيولوجي، تنسجم داخل المعيار بنسب كمية مضبوطة، هذا ما يختلف حوله الفيلسوف كانغيلام، الذي يعتبر المعافى شخصا يحيا بمعيار مختف عن سابقه، لأن طبيعة المعيار الذي تتميز به صحة الفرد يتسم بالذاتية، وهذا ما يمنح الفرد السوي قوة الإرادة لمواجهة زلات المرض، وتحدي الانفعالات المرضية والتغلب عليها من جهة، [3] ومن جهة أخرى يوضح كانغيلام نقاط الاختلاف التي تشمل ظاهرة السوي من الناحية الفيزيولوجية وحالة الصحة أيضا، فالشخص المعافى لايقترن بمفهوم السوي في موقف محدد بل يجب أن يرتبط بالطبيعة المعيارية في العديد من المواقف والحالات، هذا ما يشير إلى أن الصحة مفهوم عام وشامل له خصائص تميزه، كقدرته على التفاوت مع المعنى المؤقت المحدّد للسوي، والقدرة على تجاوز المعنى المألوف، وإنتاج معاني وقيم نوعية لحالات مستحدثة أخرى. [4]حيث كان الفكر البيولوجي في أواخر القرن الثامن عشر، يرى بأن هناك جانبا من الوحدة بين الفيزيولوجيا كدراسة لظواهر الحياة، وبين الباثولوجيا كتفسير للأمراض، وحدة كان يفترض أنها هي التي تساعد على الارتقاء إلى فهم حقيقة الظواهر المرضية من خلال تحليل استمرارية الحياة الطبيعية، بمعنى تكون دراسة المرض على خلفية الحالة السوية. في مقابل ذلك يوضح كانغيلام بأن

[1] ليشته جون، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، ترجمة : فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008،ص46

[2]Georges Canguilhem, Le Normal Et Le Pathologique, Paris, P U F ,Coll(quadrige),1993 , P. 53.

[3] Georges Canguilhem, Notes Sur La Situation Faite en France à La Philosophie Biologique,revue de métaphysique et de morale,juillet-octobre,1947,p326

[4] Georges Canguilhem, Le Normal Et Le Pathologique, op.cit. ,p130

هناك ظواهر مرضية، تمكّن في معرفة الحياة، وعلى هذا الأساس فإن ارتباط الصحة يكون وفق البعد المعياري الذي يشكل قوة وظيفية منتجة لمعايير متناسبة مع الحالات، وبهذا لايتجه السوي في اتجاه الموضوعية إلا إذا ارتبط بمعايير كمية معينة تتسم بالموضوعية أيضا، لأن السوي يظل محافظا على معناه المجرّد الذي يختص بنمط محدد، بالمقارنة مع البعد المعياري الذي يختص بالإنسان بشكل فعلي قيمي واضح. وهذا مايفتح لنا سجالا من جديد بحكم إمكانية دراسة حالة السوي بأسلوب نظري في السابق ، فما مدى إمكانية التأسيس لعلم يختص بتحليل طبيعة وتأثيرات الصحة؟

وبهذا تمّ تناول موضوع الصحة كطرح إشكالي فلسفي، تقود دراسته إلى فهم العلاقة التي تربط الإنسان المعافى بالحياة، فالشخص الحي يتم تحليل طبيعته من الناحية العلمية الموضوعية، التي تهدف إلى التقصي عن أبعاد وخصائص، ينبغي توفرها لتعافيه وشفائه(سوائه) هذا من جهة، كما يتم دراسة الإنسان الحي من جانب فلسفي ذاتي، يهدف بدوره إلى التنقيب عن أبعاده المعيارية، ويشير كانغيلام في قراءته التحليلية أن دراسة مفهوم الصحة في إطار فلسفي، قد تطرق إليها في السابق جالينوس واعتبرها موضوعا ميتافيزيقيا، وذلك خلال تقسيمه الطب إلى فرعين: الجانب الأول يتعلق بعلم العلاج والتعافي من زلات الداء، والفرع الثاني يتمثل في جانب الحماية من الأسقام والتغلب عليها، في المقابل لم يعط اهتماما واضحا للصحة كموضوع علمي بل صنفها ضمن المسائل الميتافيزيقية، التي يصعب تطبيق قراءة علمية موضوعية عليها، [1]وقد سار كانغيلام على نفس النهج الذي اتخذه جالينوس بخصوص الطبيعة الفلسفية للصحة، وذلك يعود إلى شروط أهمها:

- إن تأسيس علم للبحث في موضوع محدد مرهون بارتباط هذا الموضوع أو القضية بشرط القياس، الذي يرتكز على آلية الثابت والمتغير.

-إن دراسة واقع خبرة الحياة التي يعيشها الأشخاص، يدفع إلى الاهتمام بالروابط الموضوعية واقصاء البعد الذاتي، الذي تتأصل فيه الخبرة المعاشة، وبالتالي فإن ظهور العلم بطبيعته الموضوعية، جعله يدخل في صراع مع القيم الذاتية بسبب معاينة الوسط المعاش للفرد، هذا ماجعل الفلسفة تصبح وسيطا حاملا للمبادئ الذاتية لفك السجال بين الطرفين.

-حاول الإنسان أن يجعل العلم الموضوعي غاية لتمثّل وفهم العالم، لتتحول الحياة إلى محور أساسي قابل للدراسة بواسطة العلم.

[1] جورج كانغيلام، دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، ترجمة: محمد بن ساسي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007،ص595

-الفيزيولوجي يحمل نفس تصور الفيزيائي للحياة، فهو لاينظر إلى الحياة كوقائع متداخلة ومتناغمة مع بعضها البعض، بل ينظر إليها كجانبين مختلفين: سوي ومرضي.[1]
-بحكم الارتباط الوثيق الذي يجمع الفيزيولوجي بالممارسة الطبية، إلا أن حالة التعثر التي تواجه الإنسان في الحياة المتمثلة في المرض، كانت بمثابة الدافع الذي جعل الحياة، وما تحمله من قوة للتحدي والمواجهة، تمنح للإنسان دعامة الوعي للتفريق بين الصحة والمرض، كما أن هذين المفهومين يحملان طابع تقني ذاتي لايرقى إلى المعيار العلمي، فالفيزيولوجي والطبيب ينظر ان إلى المرض من زاوية مجرّدة،[2] لكن هذه النظرة تختلف عند المريض الذي يشعر بالمرض كتجربة معاشة مليئة بالألم والمعاناة، وعلى هذا الأساس يتوصل كانغيلام إلى التصريح بأن الصحة والمرض مفاهيم فلسفية مجردة، لاترقى إلى الموضوعية.

ونجد كانغيلام يصف الصحة باعتبارها إفصاحا لما يدور في الجسد، وتشكل ردود فعل قوية وحماية واسعة من التجاوزات في الوسط العام، لهذا تعتبر حقيقة الجسد،[3]كما أن الدافع الذي يدعو إلى اعتبار الصحة حقيقة الجسد ليس ضربا من الخيال والوهم، بل قد تمّ اثبات مصداقية ذلك بشكل واضح في تاريخ الطب، وهذا يظهر خاصة عندما يتم زراعة العضو، فإن ذلك يفترض حدوث المطابقة والتكيف بين أنسجة العضو والجسم، فالصحة عند الإنسان تجاوزت البعد النظري المجرد، وتحولت إلى تجربة معاشة حقيقية، تنطبق الفكرة مع الواقع، ليحدث الفهم الحقيقي لما يوجد في الجسم، وهذا ما يوضحه جورج كانغيلام في تفسيره، بأن الطبيب هو الشخص المخول له بفهم ما يمكن أن يعاني منه المريض من أعراض وتغيرات، تطرأ على جسده، حيث يتعذر على المريض أن يفسرها أو يجد لها بلسمًا، ليكون بذلك الطبيب الشخص الكفء المؤوّل للاختلال والأعراض، التي تصيب المريض قبل أن يكون مُشخِّصًا ومعالجًا له من مرضه.[4]إن عملية إنتاج المعايير التي يحتاجها الجسد، تفترض معرفة المريض لما يحمله الطب كعلم له القدرة على علاج المرض، هذا ما يوضحه كانغيلام في قوله:"إن الطب هو فن الشفاء، ولكن يتعين علينا أن نجعل منه علم الشفاء. إن الفن هو أمبريقية الشفاء، أما العلم فهو عقلانية الشفاء."[5] بمعنى أن الطب هو العلم الذي يستطيع أن يؤول، ويشخّص أعراض المرض بواسطة ممارسة طبية عقلانية، تتوصل إلى الإحاطة بأسباب حدوث المرض والاختلالات التي يسبّبها، لتنتهي بتحقيق مرحلة الشفاء، والتعافي من المرض.

[1] جورج كانغيلام، دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، مصدر سابق، ص596
[2] المصدر نفسه، ص596
[3] Georges Canguilhem, La santé concept vulgaire et question philosophique, Toulouse, sables, 1998,p p27,28
[4]Ibid., pp 29,30
[5] جورج كانغيلام، دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، مصدر سابق، ص568

3.مشكلة المرضي بين المفهوم العلمي والأنطولوجي:

تناول كانغيلام بالدراسة والتحليل مفهوم المرضي، وطبيعة تأثيره في تاريخ العلم، موضحا أن المرضي يعبّر عن وضعية أنطولوجية مستحدثة ليست مألوفة، تتضمن نموذج معياري مستقل لايخضع لحتميات، ولايمكن اعتبار المرض ظاهرة مجردة تمثل اختلال، بل هو يشكل أيضا خبرة إنسانية قيمة قابلة للتحليل العقلاني الواعي،[1] فالمعنى الإغريقي اللغوي الذي يحمله مفهوم المرضي pathosيقصد به الخطاب الذي يحمل رسالة التأثير في الشعور النفسي للإنسان، بحيث يجعله يحيا هذا الخطاب المؤثر، لكن كانغيلام يربط الدلالة الاشتقاقية الإغريقية للمرض بإقصاء النموذج الكمي للمرض،[2] موضحا أن السبب الذي دعا إلى تسمية هذا المصطلح بالمرض، يرتبط بوجود دافع أساسي، يتمثل في المأساة التي يعيشها الإنسان والإحساس المليء بالـألم ، فاللاتوازن واللاانسجام الذي يحدث بين الإنسان، والنموذج الذي يصنعه عن ذاته في عقله، هو الذي يتلخص في المعنى الحقيقي للمرض. كما أن معالجة ظاهرة المرض، تكون من خلال معيار ذاتية المريض، وما يشعر به في طبيعته من تأثير وردود أفعال، يشعر بها من جراء المرض، فالمعيار الذاتي يتوافق مع حالة المريض إذا تعافى، وتجاوز حالة المرض، وبحكم أن الإنسان كائن حي، يهدف إلى استعادة حالته السوية بواسطة العلاج الذي يختص به الطب، فهذا الأخير يعتبر منفذا للحياة من جديد، وعلى هذا الأساس يفسر كانغيلام في قوله:"مهما كان تعقيد الواسطة التقنية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية للطب المعاصر واصطناعيتها، ومهما كانت مدة تعليق الحوار بين المريض والطبيب، فإن قرار النجاعة الذي يبرر الممارسة الطبية، سيكون مبنيا على هذا النمط الحياتي المتمثل في فردية الإنسان. ففي ما تحت الوعي الايبستيمولوجي للطبيب نجد أن هشاشة وحدة الحي البشري هي التي تجعل من التطبيقات العلمية المعبأة دائما لخدمته خلاصة حقيقية.."[3] بمعنى أن الممارسة الطبية، تنتهج معيار فردي خاص بالإنسان المريض فقط باعتباره نموذجا غير مماثل لغيره، وبالتالي يكون معياره خاصا به، هذا ما بقي كقاعدة ثابتة رغم ثورة التطور التقني، التي شهدها تاريخ الطب المعاصر.

4.العلاقة بين مفهومي السوي والمرضي:

تعتبر الدراسة الإبستمولوجية التي قدمها كانغيلام المحور الأساسي، في تحليل وتوجيه تاريخ العلوم، لأن ابستمولوجيا العلوم حققت تطورا حاسما في إطار المجال العلمي، وتعمقت بدقة في تحليل الإشكالات الأساسية التي تبحث فيها العلوم، ولقد حظي الفكر الباشلاري بمكانة متميزة في التأريخ العلمي، فقد تأثر به كانغيلام، الذي رسم خط الرجعة

[1] E. Littré, Dictionnaire de la langue française, tome 5, op.cit. p1548
[2] Ibid., p1548
[3] جورج كانغيلام، دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، مصدر سابق ،ص620

إلى أبحاثه التي قام بها حول العقلانية المطبقة والإبستيمولوجيا، حيث قام بتحليلها ونقدها من أجل بلورت مضمونها، وتصحيح المفاهيم العلمية التي أسسها باشلار والتعمق في ميدان المعرفة البيولوجية، لا يقصد بالإستيمولوجيا أنها نظرية عامة تشمل كل علم قائم، وإنما تعتبر الدراسة المعيارية الباطنية المرتبطة بالبحث العلمي، ليتضح أن الإبستيمولوجيا هي قراءة نظرية أساسية، مثّلت النقطة الفاصلة التي أظهرت الفرق بين تاريخ العلم والتاريخ العام، كما نشير في سياق دراستنا أيضا إلى تأثر ميشال فوكو بأستاذه كانغيلام، وقد أهدى لتلميذه مؤلفه الموسوم(السوي والمرضي)، حيث يبين كانغيلام في دراسته العلمية أن المقاييس التي يصنف على أساسها السوي والمرضي، لاترتبط بالجانب الموضوعي بل تتميز بالذاتية، وهي مصطنعة في أساسها، وهذا ماجعله يعتبر أننا كائنات معيارية، فالمسؤول عن وضع هذا التصنيف في نظر فوكو هو الطبقة البرجوازية الحاكمة في القرن التاسع عشر.

ليوضح كانغيلام أن الظاهرة الحيوية، تتضمن جوانب مختلفة منها حالة السوي وحالة المرضي أيضا، حيث يصبح الإنسان غير سوي في صحته، عندما يخالف طبيعة المعيار المؤشر على الصحة المتوازنة والسليمة، وهذا ما يشبهه بالحكم على القيم، فعندما يتم انحراف الإنسان عن المقياس الصحيح للأخلاق، فإنه يحكم عليه بارتكاب جنحة أخلاقية أو ذنب، يجعله محروما داخل المجتمع الذي يحيا فيه، ويعطي كانغيلام تصورا مختلفا للمعيار الذي يحمل معاني مختلفة في اعتقاده، الذي يكون في البداية ذو طبيعة بيولوجية، ثم يحمل معنى واقعي اجتماعي، ليكتسي المعيار بعد ذلك بعدا أنطولوجيا،[1] يرتبط بالخبرة المعاشة التي يعيشها الإنسان في العالم الخارجي، وبحكم تعدّدها، تزيد نسبة المعايير، وهذا مؤشر على وجود علاقة طردية بين التجارب الحية في الحياة والمعيار، وقد استهدف كانغيلام دراسة موجة التطور التي مرّ بها الطب في حقبة القرن العشرين، مشيرا أن الاعتقاد الذي ساد المعنى الذي ارتبط به مفهوم الصحة، بأنها حالة يستحضر فيها المرض وليس زواله بشكل نهائي، فالصحة تمثل القابلية على استرجاع ظاهرة أولية بواسطة تحريض الجسد على قوة التحمّل، حتى يكون بمقدوره استبدال النموذج البنيوي للإنسان المريض، كما أن مستوى التحول الذي تخضع له البنية الجسدية للإنسان والمتماثل مع التكيف، الذي يظهره مع ما يمر به من وقائع في حياته، لا ينتج عن ذلك ظواهر لامتوازنة وسلبية على صحته، وإنما يدفع إلى تجربة متواصلة لاستبدال المعايير، ومن هذا المنطلق يظهر كانغيلام موقفا مناهضا بخصوص أن الأفراد هم بمثابة كائنات معيارية، ليس بسبب ارتباطهم بنمط معياري بل لكونهم يقومون بصناعة المعايير وإبداعها، ليتضح

[1] Georges Canguilhem, Le normal et le pathologique, Op.cit, P. 53.

من هذا أن الأفراد يشكّلون بحد ذاتهم نظاما مفتوحا على الوسط المعاش ، فالإنسان يعاني من عوائق في حياته أهمها حالة المرض، التي تخلق لديه عملية للتحريض، ومنبها فعالا يدفع الجسد إلى إنتاج معايير تستلزمها الصحة.[1]

لقد حاول كانغيلام أن يفسر الاعتقاد العلمي السائد في القرن العشرين، المتمثل في ارتباط المجال الطبي بعلم الأمراض، بالمقارنة مع الفيزيولوجيا التي تلخصت في دراسة الحياة، وعلى إثر ذلك التصور، أصبحت إمكانية تشخيص حالة الجسم الإنساني مرتبطة بدراسة الحالة المرضية التي يختص بها الطب فقط، ونتج عن ذلك استحالة تحليل ظاهرة الجسم الإنساني بواسطة الفيزيولوجيا، هذا ما دفع كانغيلام إلى طرح مسألة العلاقة بين الفيزيولوجي والمرضي، ليكشف عن وجود اختلاف بينهما، يشمل الجانب السريري فقط، مؤكدا أن نظرتنا للحياة، أصبحت تفهم في سياق الكمال والكلية، التي يعيشها الكائن الحي باعتباره نظاما مفتوحا قابلا للتغيير، يتعايش مع حالة المرض كمرحلة مرتبطة بالحياة، لايمكن اعتبارها ظاهرة غير سوية، فقد أصبح المرض معيارا تقاس به صحة الجسم، وذلك يكون من خلال قابلية التكيّف، التي تمنح الإنسان قدرة قوية على بناء نظام جديد، كما اهتم جورج كانغيلام خلال دراسته للطب بتأليف كتاب حول السوي والمرضي الذي تمّ إصداره 1943 لأول مرة، تطرق في مضمونه إلى تحليل أهم نقاط الاختلاف التي توجد بين السوي والمرضي، مركزا على فهم الأسلوب الذي تمّ توظيفه في بلورة معنى هذه المفاهيم داخل مجالي الفيزيولوجيا والبيولوجيا خلال فترة القرن التاسع عشر والعشرين، و قد بدأ قراءته التحليلية النقدية لظاهرة السوي والمرضي بتساؤله حول كيفية إدراج حالة السوي في البيولوجيا والطب.؟

أوضح كانغيلام أن حالة السوي ترتبط بالتعافي والشفاء، وتمتع الشخص بالصحة، ويقابله المرضي في الجانب الآخر، وبما أن السوي يتم تثبيته كمصدر للحياة، فإن المرضي يندرج أيضا داخل ظاهرة السوي،[2] فالطريقة التي كانت منتهجة في العصر اليوناني، تميزت بالمماثلة بين حالة السوي وميزة التوازن، بخلاف حالة المرض التي تم ادراجها في معادلة متساوية مع صفة اللاتوازن واللاسوي، لتتغير هذه النظرة مع مرور الزمن، بحكم التطور الذي شهده الطب في القرن التاسع عشر، إضافة إلى ما قام به العالم كلود بارنارد في حقل الفيزيولوجيا التجريبية، مبينا استحداث الطب للبعد الكمي، المرتبط بدرجات تطور طب القرن التاسع عشر ليكشف عن النظرة الكمية المتعلقة بمستويات

[1] -G. Canguilhem : la connaissance de la vie. Paris, J. Vrin, coll. «bibliothèque des textes philosophiques », 1992, (1ére édition 1977 ,p46

[2] ليشته جون، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، مرجع سابق، ص44

الإثارة للتفريق بين السوي و المرضي،[1] بمعنى أوضح أصبح المرض هو حالة إما أكثر أو أقل من السوي حسب تصور كلود بارنارد، معتبرا أن هناك رابطة تجمع بين الصحة والمرض، فحتى يتم التحقق وفهم فيزيولوجيا الجسد السوي، استلزم أن نكون على معرفة واسعة ودقيقة بأعراض الجسد المريض، هذا ما يفسر ضرورة الاعتماد على المعيار الكمي الذي يجعل الصحة الجيدة أسلوبا للتقصي والإلمام الواسع عن حالة المرض.[2]

ما يمكن أن نستنتجه من هذا القول أن الصحة هي المقياس الصادق للإحاطة بسلامة وحقيقة الجسد، وقيمة الممارسة الطبية تكمن في ما تحققه من تشخيص صحيح لأعراض المرض للشفاء منه، لأن نشأة الطب كعلم كانت بهدف رعاية سلامة الجسم التي أصبحت تتوافق مع البعد المعياري. وهنا نلمس المعادلة المتكافئة التي ينبغي أن يرتبط فيها الجسد والمعرفة والحياة، بحكم أن الجسد إذا أراد أن يحيا الخبرة المعاشة، فينبغي عليه أن يحيط بالمعرفة، هذا من جهة ويسعى كانغيلام أيضا إلى التصريح:" أكيد أن الجسد المعاش ليس موضوعا. لكن الحياة بالنسبة للإنسان هي معرفة كذلك. فأنا أشعر بالسلامة طالما أشعر أنه بمقدوري تحمل مسؤولية أفعالي، وبمقدوري إيجاد أشياء- أي صنعها -، ثم خلق علاقات بين الأشياء لم تكن ممكنة بدوني، وبدون تلك العلاقات لن تكون تلك الأشياء هي ماهي عليه. وبالتالي فأنا بحاجة إلى تعلم معرفة حقيقتها – أي الأشياء- من أجل تعديلها."[3] فوحدة التداخل التي تجمع بين الصحة والحياة، يجعلها تكتسي طابع المعيارية، لأن الصحة معناها معايشة الماهية، واستحضار خبرة الملموس الذي يضفي الطابع الحيوي الإبداعي على الجسد داخل معركة الحياة، فالقراءة الابستيمولوجية التي قام بها كانغيلام حول مفهوم السوي والمرضي، جعلته يتخذ نفس موقف الفيلسوف ميشال فوكو، مصرّحا في قوله أن تاريخ العلم يعتبر نظاما مفتوحا، حيث يتم إرساء دعائم العلم في أول وهلة، ليصبح العلم بعد ذلك إلى منتج يبدع تاريخه، ويخضع المعيار تحت مجهر التحليل النقدي مع إمكانية استبداله، ولهذا الأساس أصبح العلم يشكل ثورة من الانقطاعات، تستهدف كثرة المعايير، فقد أوضح كانغيلام بأن التاريخ المبني على فكرة الانقطاع، يحتكم إلى فن السؤال الذي يكشف بواسطته الإذعان الساذج لنظريات علمية خاطئة، بالسؤال الذي يطرحه التاريخ على ذاته، يسعى إلى بلوغ الحقيقة العلمية، هذا ما

[1] كلود بارنارد، مدخل لدراسة الطب التجريبي، ترجمة: عمر الشارني، دار بوسلامة للطباعة والنشر،تونس ، ط1، 1982، ص72

[2] ليشته جون، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، مرجع سابق، ص44

[3]Georges Canguilhem, Le normal et le pathologique, Op.cit, P.35.

أشاد به كانط سابقا عندما أحدث ثورة علمية في عصر التنوير للخروج من السبات الدوغمائي الذي كان سائدا.[1]

5.الخاتمة:

في الأخير نستنتج أن مفهوم السوي لايخضع للثبات بل إلى الطبيعة الديناميكية المتغيرة، لأنه يرتبط بحركة التطور التي تشهدها العلوم، وبهذا يرى كانغيلام أن الشفاء هو مرحلة جديدة، يحياها الإنسان في الحياة، انطلاقا من نمط مختلف من المعايير، قد تتميز بقدرة قوية، تمكّن من التصدي للأمراض أكثر من الأول، ورغم تعرّض جسم الإنسان إلى زلات المرض إلا أن البعد المعياري الحيوي الذي يتمتع به الجسم، بالإضافة إلى خضوعه لمضادات حيوية، تجعله قادرا على تجاوز التعثر، وبلوغ وضعية صحية مستقرة، اتضح لنا من خلال الجانب العلمي الموضوعي، أنه لايوجد اختلاف حول الطبيعة الفيزيولوجية بين المريض والسوي، ولابين الصحة والمرض، ولابين الفيزيولوجيا والباثولوجيا، ولاحتى بين الحياة والموت، غير أننا إذا لاحظنا التطابق بين هذه الحالات الكيفية من زاوية القيم البيولوجية لكانغيلام والقيم الاجتماعية لميشال فوكو التي تمثلها، حينئذ يتغير الطرح، ويتبدل التصور، ونغادر فورا من المجال العلمي إلى المجال الفلسفي.

إن التفوق العلمي الكبير الذي حققه كانغيلام خلال فترة أربعين سنة، وتركيزه على دراسة المعرفة البيولوجية وتاريخ الطب، جعله يتجاوز الطرح التقليدي، الذي كان يعتمده في التخصصات الأخرى كالفيزياء والكيمياء مثلا، التي كان يتوصل فيها إلى نتائج افتراضية استنتاجية، لكن ذروة الاختلاف التي وصل إليها في دراسته لمجال المعرفة البيولوجية، قد ارتبطت بفضاء الخيال، واحتدمت فيه التأويلات الفكرية، ليتوسع في تحليله لتاريخ البيولوجيا، وهذا التعمق شمل عناصر أساسية أحدث تغييرا في كوادر المجال البيولوجي المتعارف عليه من قبل.

6-قائمة المصادر والمراجع:

[1] ليشته جون، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، مرجع سابق، ص47

1-جون ليشته ، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، ترجمة : فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008

2-جورج كانغيلام، دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها،ترجمة: محمد بن ساسي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007

3-كلود بارنارد، مدخل لدراسة الطب التجريبي، ترجمة: عمر الشارني، دار بوسلامة للطباعة والنشر،تونس، ط1، 1982

4-Georges Canguilhem, Le Normal Et Le Pathologique, Paris, P U F ,Coll(quadrige),1993

5-G. Canguilhem : la connaissance de la vie. Paris, J. Vrin, coll. («bibliothèque des textes philosophiques », 1992, (1ére édition 1977

6-E. Littré, Dictionnaire de la langue française, tome 5, Paris, Gallimard/Hachette, 1957

7-Georges Canguilhem, Notes Sur La Situation Faite en France à La Philosophie Biologique,revue de métaphysique et de morale,juillet-octobre,194